أصوات في الليل

قصص قصيرة

عبد الحميد البسيوني

الغلاف الكتاب والخطوط والرسوم للفنان على البيجى

آه،
ليس هو الليل
بل الجرح اليومي
ينز دماً أسود
في الصبح المقبل.

" ص. عبد الصبور "

⊙ مدينة الصراصير العجيبة و لحظات من الزمن الوغد



كنت قد لاحظت الصرصار الذى يتجول قبالتى ، كان يتجول بحريه فوق الحائط خارجا من بين الكتب المعلقه، كان بقعة سوداء غامقة ، وأنا أطفئ النور لاحظت أنه يتكاثر ولم أفكر فى قتله لأننى كنت أفكر فى "إيفون" زميلتى فى المكتب كان جسدها ثورة : كنت قد توغلت بعينى الشرهتين فى تضاريس رقبتها وإستطعت أن أكتشف أن صدرها مستعمرتان ضخمتان تنزفان دماً ، وأنه يحدث دائما بداخلى هزه خفيفه شبيهة بتلك الهزات الأولى المنتهيه دائماً بزلزال ، حين تبدأ العصافير فى الطيران المباغت أو تهتز أسلاك البرق بخفة غير مرئية لحظة تحققها الفعلى أمامى وهتافها - هتافها الشبيه بلغة بدائية مهشمة : صباح الخير .. يكون الحلم المستحيل والكتاب المستحيل وحتى الفعل المستحيل

قد حولوني إلى بركان ، وهي الآن نائمة إلى جواري ، عارية تماماً ، وصوت المرصار قد بدأ في الطلوع والحجرة مظلمة ولا شئ في العالم بقادر على أخذها مني ●

● لحظة أولى —

كانت قد بدأت تمطر مطراً خفيفاً ، وشارع الأزهر يلفظني وواجهات تجارة الجملة تستقذفني واحس بلغة الرصيف العدائية والصوت الخافت للأشياء ولقدمى " وهما تتحركان تجاه العتبة وكان الرجل يشعني بصورته الكلاسيكية - الجلباب والبالطو واللاسة الملتفة حول رقبته - وعندما وجدته في الكرسي الذي خلفي في الأتوبيس تأكدت من أنه يراقبني ...

وبدأ الصوت يرتفع أكثر ، وبدأت البقع السوداء فوق الحائط تكثر كذلك ، كان الشيش غير محكم والضوء الآتي من الشارع يسقط مباشرة فوق الحائط المواجه فتتسع دائرة الرؤية وأكون قادراً على مشاهدة البقع السوداء فوق الحائط بهدوء ، ولم أفطن بادئ الأمر إلى شئ : كنت مستمتعاً بدفئ الجسد الذي بدأت أحشره داخل كياني وأقذفه في كل الخلايا مستعيناً بحبي الشديد لها وعريها المقدس وطراوة حلمة الثدي وهي تخترق صدري حارقة ونافذة ومتوهجة

وربما كانت لغتها المهشمة ونداءاتي الغامضة وصوت اندفاعها القوي
داخلي قد غطى تماماً على صوت جوقة الصراصير التي بدأت في
التزايد فقلت لها : أعبدك يا إيفون ... وكانت ترد علي بصوتها
المهشم مرددة ورائي في بلاهة ... أ ع . ب . د . . ك .. ولكن ذلك
لم يكن له أية دلالة فهي قد بدأت دورتها الأبدية ولن تستطع
التراكمات المتزايدة أن تصلها ، وكنت أحاول أن ألمح عينيها العسليتين
الواسعتين المشعتين في الظلمة قبل أن تختفيا ، جرار العسل القديمة
وأقواس قزح وألوان لم تتكون بعد وألوان مستحيلة التكوين
وأضمها إلى صدري : إيفا ... سوف أعيد من خلالك تشكيل
الكلمات تخرج بصعوبة ، كانت تتحول إلى تمتمات غير محددة
وصرخات شبيهة بألم الإنسان الأول حين تفجؤه الظلمة والحيوانات
المفترسة والفكرة ، وعندما توقف صوت الصراصير تماماً أصغيت
لحظة ؟ —

(إنه عالم من البحار ، وبلاد كبيرة
ينادى عليها الدلال لتباع
تحت الشمس المحرقة ، والهضاب
العالية تقمع ، والأقاليم يقدر لها
سعر وسط رائحة الورود المهيبة)
— سان جون بيرس —

كانت إيفا - قد صارت داخلي ، وكنت قد سحبت من العلبة التي بجانبي
وأشعلت الثقاب فأخذتني الدهشة ، ظللت محملقاً في الشعلة
الخضراء للكبريت لحظة ثم وقعت عيني على بداية السرب ....

: كانت الصراصير قد بدأت تشكل نفسها فوق الحائط بطريقة غاية في البراعة ، وعددها قد كثر جدًا ، تغطي تمامًا المساحة التي تعلو الكتب ، في فصائل مكونة من ثلاثة أفراد ، ثم أربعة ، وخمسة في شكل هرمي يبدأ من السقف وينتهي فوق السرير ، كانت قد توصلت بطريقة غاية في الخبث إلى اختزال الطريق ، فبدلًا من النزول إلى أسفل الحائط ثم الصعود مرة أخرى إلى السرير كانت قد توصلت إلى بناء - لا أعرف كيف - كوبري صغير من خيوط واهية لم أستطع رؤيتها تمامًا موصل من الحائط إلى السرير ، وكان صوتها يعلو (ترن - ترن ترن ترن .. ترن) بسرعة وبتركيز خارق وكأنها لغة مشتركة ومتبادلة مفهومة الأبجدية وهادفة شيئًا قطعيًا ، وفي لحظات قليلة كانت تخوطني ، كنت محاطًا بها ، كانت تلتف حولي بطريقة متزايدة ومرعبة ، وكان على أن أقاوم ، لكنني وجدت نفسي ممدًا فوق ظهري وذراعاي مستلقيتان في هدوء غريب إلى جانبي هاجمتني فكرة أنه ربما كان ذلك وهمًا ناجمًا عن تأثير الأفلام الأمريكية التي أشاهدها كثيرًا هذه الأيام ولكن الصوت ، تلك الـ(ترن ... ترن) بدأ يتصاعد من جديد بإصرار هذه المرة ، وذلك السرب الذي يتزايد بسرعة خرافية يحيطني ، - يحيطني ويحاصرني فوق سريري ، وأنا بين كتبي الراقدة الآن مثل جثث متعفنة ، تبص من فوق بشماتة ، وتندفع من حولها الصراصير مقبلة نحوي ، كأنها تدرك استسلامي ، تدرك بأنني قد فقدت تمامًا القدرة على المقاومة منذ تلك اللحظة ◉

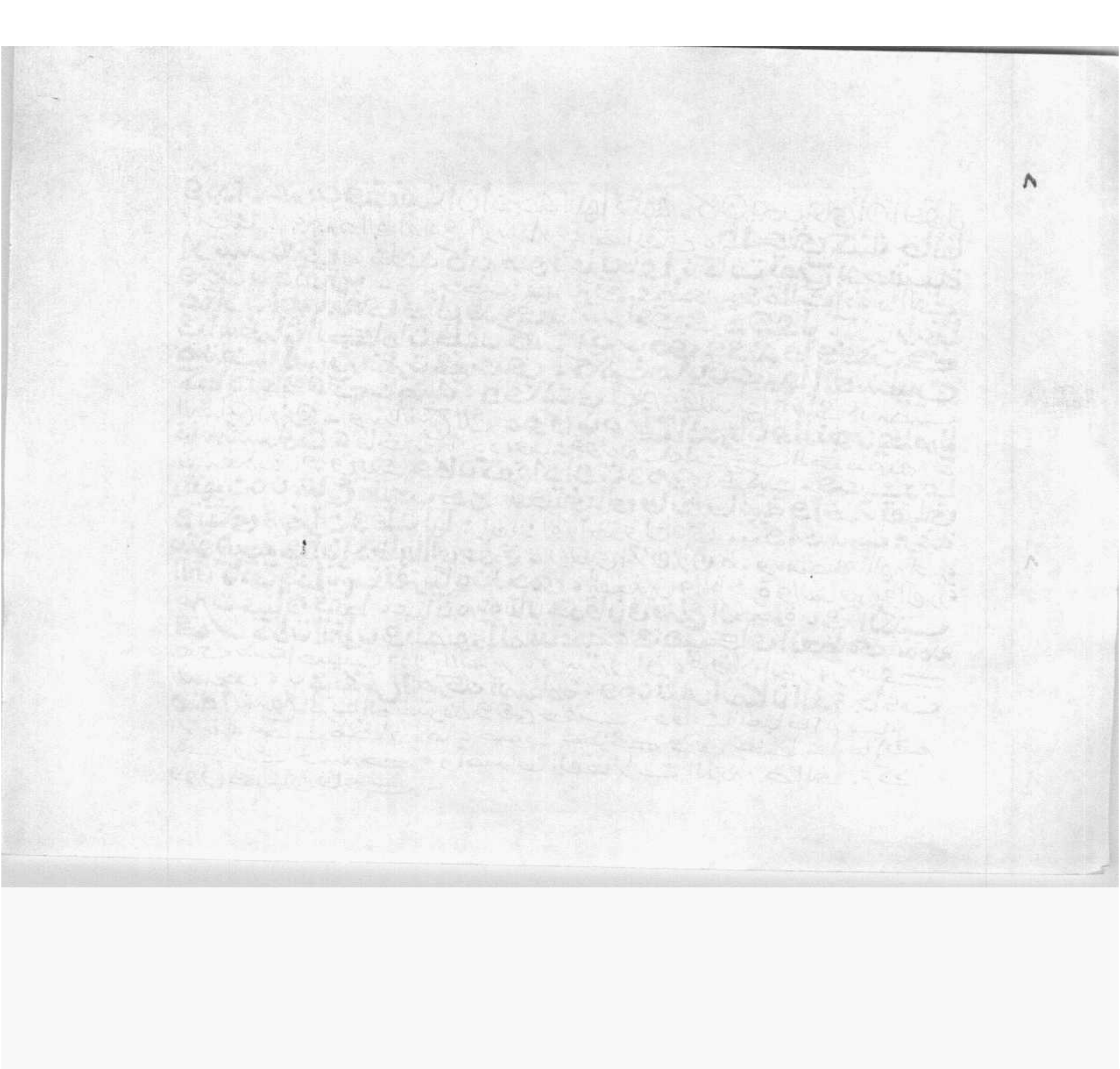
لحظة ٣ ـ

(لم أكن قادراً على التعامل مع إيفون
كأنثى : كنت أحبها كمدينة ، ففى
ميادينها العامة تندفع نافورات الدم
محتضنة أزهار ❋ اللوتس وعظام
البردى ناحتة تماثيلاً من الجرانيت
تقف شامخة ومتحدية ، صلبة ،
تهزمنى تتخلل مكوناتى الدقيقة وتقذفنى
ناحية الأناشيد المقدسة وأهازيج الفرح
الطفلى فى حدائق عينيها ، وكنت أحبها
كحلم : سيولة جسدها واندفاع النهر
فى شرايينها ورفضها الدائم لموجات الغزو
المستمر ورطوبة ما بين نهديها وهى تقف
بينى وبين سيادة المدير ، الذى بالغ فى
إصراره على أن أسحب إستمارتى فأقول
له بأن ذلك ضد وجودى كإنسان
وأن ذلك الجزء الحى المدرك للضرورة
بداخلى يرفض ذلك وبأن ملايين الأنات
التى تتخلل قنواتى السمعية فى عتمة الليالى
الشتوية الطويلة وتحت وهج الشمس
وهى محتضنة لوزات القطن الشاهق
ودوائر الأجران حيث ذرات التبن
التى لم يراها أبداً والتى لم تتخلل
خياشيمك أبداً تلك الذرات الطافحة

بالوجع والحب والضغينة والأكف
المشققة وحبات العرق اللؤلؤية
وجدران الخوف والطين والوحدة
مع جرادل وقضاء الحاجة وظلال نافذة
الزنزانة وفعل الكيمياء المدمر ، لكنه
قال لي بأن ذلك مشروط باستمرار
وجودي معه في نفس الإدارة وهو
ينصحني كأب وكزميل قبل أن يكون
رئيس بأن ذلك الطريق وعر وضد
مستقبلي ، كنت أعشقها كحلم ،
وهي صامتة ، ترقبني ، لكنها عندما
بدأت بلغتها المهشمة تلك ، بشوارعها
المظلمة ونيونها القاسي توجه الى الكلمات
، تلك الكلمات ، كنت قد فقدت
القدرة على المقاومة) .

كنت قد ، فبدأت المراصير في الفعل ، وبدأ الفعل في حدوثه ، وسجدت وأنا ممدد الآن ، مصلوب ، بدأت بالقدمين والكفين كانت تلتهم في سرعة وبخفة وبدون ألم ، لم أكن أشعر بالألم ، كنت فقط أراقب اللحم وهو يختفي ، فقط كنت أحس بأنني أفرغ من لحمي ، والدم ، بدأ على شكل دوائر حمراء فوق ملاءة السرير ، كان دمي ، كنت أعرف رائحة دمي ، فصرخت في وجهه : لن أسحب شيء .. أنني حر ، فقال بهدوء : فعلا .. إنت حر . فتوغلت المراصير في جسدي ، كانت تعمل في [illegible]

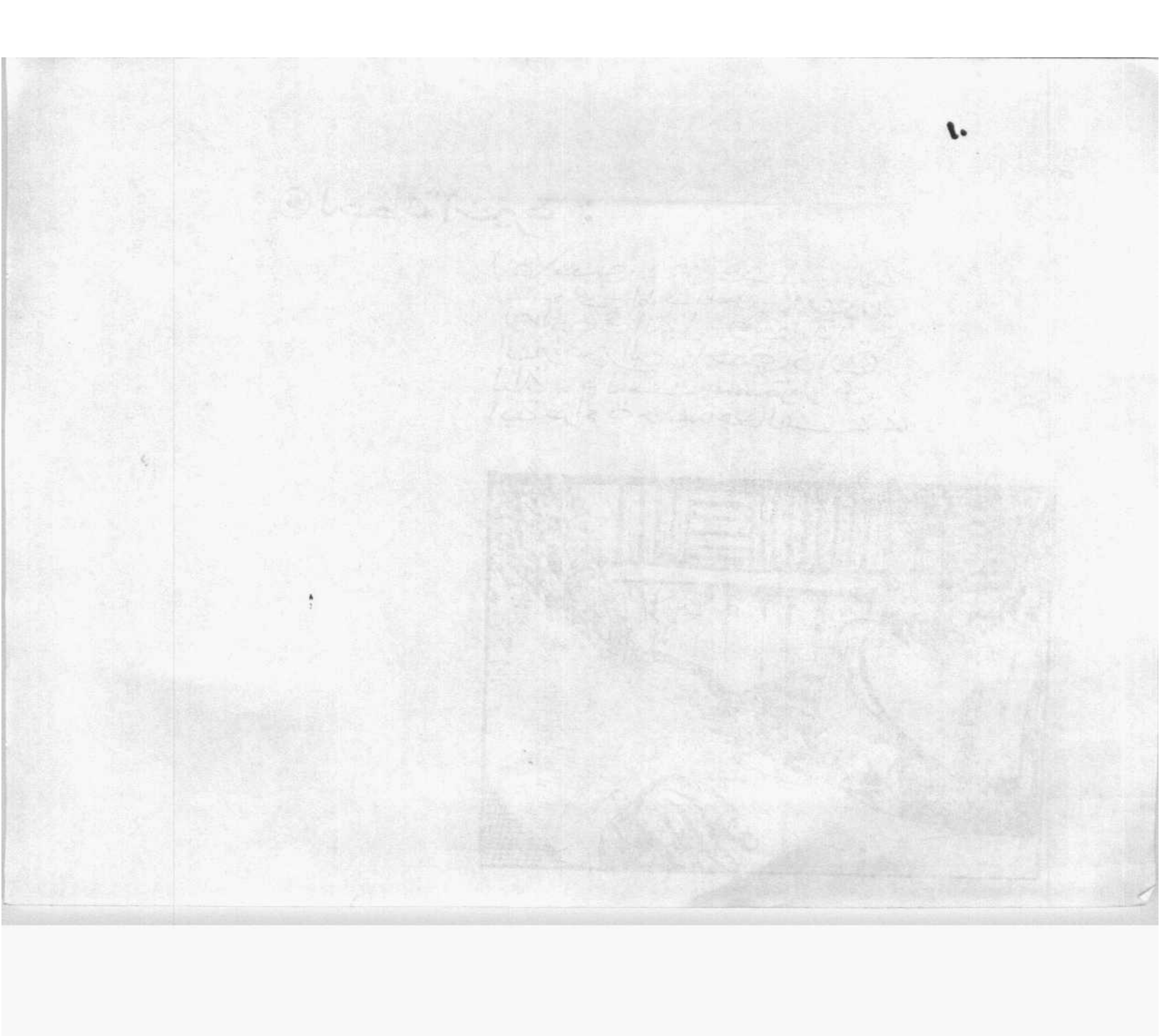
وبدأب غريب فتمنيت أن أوجه اليها كلمة ، كان يجب علىّ أن أقول
شيئا ، فهذه الطريقة في الإستلاب تضايقني ، ولكنني كنت خائفا
ألا تسمعني ، فلقد كان صوتها يعلو ، كانت تصرخ بوحشية
وجنون وتقترب ، ولاحظت أنها تترك عظمي ، وظللت أنظر إلى
عقلات أصابعي وإلى قدمي وساقي في ذهول ، كنت راغبا
في إستجماع الكلمات فلقد كانت تهرب مني فعندما وقفت في
منتصف الشارع نظرت في عيني ، كانت ما بين عينيها العسليتين
كعادتها وهي غاضبة ، وقالت لي تكلم فقلت لها بأنني في منتصف
الشارع الآن - وسأشرح لك ، وكان صراخ العربات والنيون يحاصرنا
فاستسلمت ، فأخذت أردد بغباء قولها ملت عن الكينونه
فضغطت فوق يدي وكان كفها دافئا ومريحا فبكيت ، وعندما
انتهيت من شارع طلعت حرب سحبتني الى حارة جانبية وأخذت تقبلني
وتبكي فتجرأت وقلت لها : إيفا : لقد أخذوك مني ... وأحسست برغبة
متوهجة في أن أدخلها الى جوفي ، وهي الآن راقدة ، وستصلها الصراصير
التي كانت قد انتهت تقريبا من لحمي ، الفخذين والمؤخرة والساقين والصدر ،
صرت عيناي فقط ، عينان مرعوبتان تحدقان في فراغ الحجرة ، في الكتب
في ذرات التراب والضوء المفتتحة ، في هيكلي العظمي الممدد
على شكل صليب فوق السرير ، وستدوران ، ترقبان الصراصير وهي
تنسحب ، لا في نفس الحركة المنظمة ، ومن نفس المكان الذي جاءت
منه أسمع الحركة المجنونه وهي تخفت ، ودقات المياه الرتيبه
الآتيه من مكان ما ، صوت عظامي وهي تتخبط عندما أهم
بتحريك جسدي ، وأصوات القطارات البعيدة التي تركض
فوق قضبان قلبي .



◉ لحظة أخيرة :

(ما سبق يقص فقط حكاية
عشقي المستحيل - **يوريفون** -
زميلتى فى العمل - وحكاية
الصراصير التى هاجمتنى ذات
ليلة ، ولست مسئولاً عن
أية قراءة خاصة مخالفة "





الرحيل المبكر لصلاح عبد المولى

(١)

أبا ... أبا ... يعنى إيه كلونيه؟!
بوغت الأب، كان الولد قد وضع
كفه الصغيره فوق عينيه وهو
ينظر الى والده متفاديا اشعة
الشمس، ... بوغت ... وحدق
أمامه فى عنف، - ربما كانت نظرته
الحيته الى الأشياء لا تعطى إحساسا
بالعنف ولكن بالهزيمه - ثم تجسد
الأشياء من جديد، على بعد بدت
شجرة الجميز العجوز غارسة جذورها
فى طين الجسر باستماته، جافة
والعصافير لم تعد تتعانق فوق
فروعها الضخمه، ولم تعد أوراقها
تتساقط: يابن الكلب خليك فى حالك
تكور الولد داخل الزاروق ... كانت المياه
تندفع فى ثورة، جارفة أوراق
القطن الجافة والقش، وكاد الرجل
- الأب - يهرول أمامها، يفسح لها الطريق كى يسهل اندفاعها الى القنوات الصغيرة
داخل الأحواض، بدا وكأنه يمارس طقوسا مقدسه وصرخ فى الولد: ... ... ل بأوله

الميه بتتقل .
عيناه العسليتان الواسعتان محدقتين في أصابع الوالد وهي تعمل في سرعة، مبهورتين، ربط جلبابه المبتل فوق وسطه وأخذ في تقليد الرجل: **بس .. بس .. ايه هي يابا ؟!.**
كان الآن محدداً — كانت **قوة غريبة تدفعه في أن يلح بالسؤال كأنها مسألة حياة أو موت** — حتى عندما استدار الأب إليه في عنف لم يغمض عينيه، ظل محملقاً في عيني الرجل: **لازم أعرف ..**
ورأت صورة المرأة الباهرة وهي ممسكة بذلك الشيء اللامع عن الزجاج تلمع مرغرغة جسد الولد جارية في قلب الماء التي بدأت تخف:
يعني ايه يابه ... لازم أعرف ؟!.

(٢)

انزوت صباح — حين جاءها صوت (**ستها**) حاداً — في ركن الحجرة وضعت بقية الرغيف في عجلة داخل رف الراديو، وبدت الحجرة مظلمة ولكن الظلمة كانت تشتد بداخلها حين فاجأها الصوت:
بنت.. يا صباح .....
حين تناديها بهذا الصوت المشروخ الغاضب تنكمش وتلوذ بالجدار أو بالكلمات الطرية التي صارت تجيدها الآن (**والنبي تخليكي يا ستي ... علشان خاطر الست الصغيرة ... علشان خاطر نبيه**)
كانت قد غطت بقايا الرغيف بمفرش وتخلصت بسرعة عن اللقمة التي تلوكها بصقتها تحت السجادة ونهضت وهي فزعة

— انتي بتهببي ايه جوه.

— مفيش يا ستي ... **دي كنت ...**

ولكن الكف الشديد الطراوة هوى بعنف فلم تستطع أن تكمل

وكذلك لم تتمكن من سماع الاسطوانة التى بدأت فى الاندفاع لأنها ركزت
عينيها العسليتين الضيقتين فوق أظافر السيده ، الأظافر الطويلة
المسحوبه المفضضه ، هى نفس الأظافر التى تخللت شعر (البيه)
الأسود الكث ليلة الأمس أمام (التلفزيون) كانت ترقبهما خفيه
فى صمت ، وهى جالسة فوق أرضية (الأنتريه) الخشبية
خلفهما ، قبل أن تأمرها سيدتها بالذهاب الى المطبخ : **فوفى**
ياصباح إغسلى الحاجة ....

ثم ضحكت وطوقت السيد فى شبق - كانت صباح تعى تماماً معنى ذلك فلقد
تعودت مشاهدته كثيراً فى التلفزيون كما أن ذكرى صريخ **أبيها وأمها**
فوق قبة الفرن **(حيث كانت تنام معهما)** ما زالت تخربش فى داخلها
- إبتلعت الدمعة الكبيرة التى كانت قد وصلت الى شفتيها ،
تنبهت ، كانت سيدتها تتأملها فى دهشة و سخط ثم صرخت
فيها : **إنت واقفة كده ليه يابت ... ما تمشى تجيبى السجاير ؟!.**

(٣)

حين وضعت قدمها فى الشارع أحست بالفرحة ، وفوجئت
صباح - بأضواء الشارع قوية وبيضاء ، فانتشت ، مرت بسرعه
امام دكان المكوجى ، حتى أنه - الأسطى فتحى - ناداها
لأخذ القمصان لكنها لم تنتبه - **كاد الفارق** بين الضوء
الباهر فى الشارع وذلك الاحساس بالفراغ ينسيها للحظة
كآبة الجو فوق وضوء الأنتريه الخافت - لكنها توقفت
فجأة أمام بوتيك **(مايكل)** تأملت بدقة و شغف
الأشياء المعروضة : التحف ، الساعات الذهبيه
والأساور و الملابس الداخلية المصنوعة من الحرير الأحمر

و الأصفر ، لعب الأطفال و الشعر المستعار ، وشعرت فجأة بالجوع
كانت رائحة الهواء الذى بدأ يندفع من الميدان المجاور محمله
بالأتربة فانكمشت محملقة فى خوف : عشرات الصدور والعربات
الصغيرة و المحاولة المجهضة للحلم (**كثيراً ما كانت تحلم بأنها
استطاعت شراء هذه العربة الصغيرة بالزمبلك لأخيها فى الليل**)
لكن صوت المترو الذى كان يهدر خلفها فى عنف قد
انتزع منها الحلم ، فتذكرت بأن عليها أن تشترى السجاير
و تصعد.

(٤)

مربع لامع وسط ظلام القاعه ، القاعه المستطيله الرطبه ،
وحين تبيض الشاشه تظهر بوضوح المصاطب الطينيه المتراصة
و الطوابق المستديرة : **وسع كده يا مرشدى** يهتف الولد - كان قد
عاد لتوه من الغيط - تشدهم الصور ، يختلج الواحد منهم لحظه
حين تنتفض بداخله الرغبه فى أن يعرف ، لكنه سرعان ما
يهدأ (كانوا قد اعتادوا تلك النظره الحاديه الى شاشة الجهاز) حين
يمسك بحبل وهمى ويحاول أن يشكل عالمه الخاص :
هذا الرجل المنتفخ يشبه الحج دسوقى الناظر ، وهذا المعمم
الذى يتكلم كلاماً غريباً هو الشيخ إبراهيم واعظ المركز :
يالهوى ... دى مرة ياواد ولا لهطة قشطة ؟!
يصرخون جميعاً حين رؤيتهم للمذيعة - كان ما يبهرهم بشكل
خاص هو ذلك الشعر المصفف بطريقة غريبة - وفى الليل ، يتصاعد
نهيق الحمار وعواء الكلاب مؤذناً بحدوث الشر المقبل ،
يستيقظ الولد فيضبط نفسه يحلم : دائماً ما يبدأ الحلم **بالمرأة**
التى تغنى وهى عارية الصدر حتى أن صوتها المنساب يبدو واضحاً

في أذنيه ... يا نخلتين في العلالي ... ثم تختلط الصور ... أشجار
النخل التي طلعها كثيرًا ، ولون البلح الرامخ والأحمر ، المياه التي
تغل وحركة أبيه المحنونه في الزاروق لفتح جميع القنوات في وقت واحد ..
بطن الأرض وهي تتشقق في بطء ، وظهر الدوده وهي تزحف في
حيث فوق ورق القطن الأخضر ، ثم ينتهي كل ذلك فجأة حين
يوقظه ذلك الصوت الصارخ للحمار طالبا الماء آتيا من وسط
الدار : **صباح** ... يشعله الحنين إلى أخته المسافره إلى المدينه ،
أرسلها العمدة الى أخيه هناك ، كان يحكي لها أحلامه ، جاء
بعربته الحمراء الطويلة وأخذها ، ولحظة الحس تتيقظ تهجم
صورتها الغاليه فجأة فيظل يحكي لها ما رآه في الحلم ، لكنه
يحس أنها بعيدة الآن ، بعيده ، فيبتعد عن هؤلاء المحدقين
في التلفزيون ويبتعد ، **: يا نخلتين في العلالي** ... يدوي
الصوت في القاعة ، ويسكت الجميع ، تنزلق عيونهم فوق صدر
المرأة الذي يلمع في الظلام ، ويهتز داخل عظامهم وجع النهار
خلف السواقي الدائرة منذ الأزل ، حد الناي يجز في
رقبة البهيمة أمام المحراث والصوت الرائق يجز في ضلوعهم
سن الفأس وهي تضرب جوف الأرض في وهن ، لكنهم
يتوهجون لحظة ، يهتفون فجأة حين تومئ المرأة أو يعلو
صوتها ، وتكون أنفاسهم المتصاعدة كتلة من الدفء تتشكل
في خوف ، ورغبة ، وسط رطوبة القاعة المستطيله المظلمة .

(٥)

كان عليها أن تغسل ذلك كله ، الأطباق والأواني البلاستيك
والشوك والملاعق : صباح ... لكن الصوت المرتفع
الصارخ فاجأها **: إعملي قهوة لسيدك**
: حاضر يا ست

مسحت كفها المبتل بطرف جلبابها وأمسكت علبة الكبريت، أشعلت البوتاجاز وملأت الكنكه، وضعت البن والسكر، وبالملعقه الصغيره أخذت تقلب في بطء، وهى تنظر إلى شعلة النار الزرقاء تعلو وصوت قطرات الماء المتساقطه من الحنفيه يخبط طرف الملعقة فيحدث بداخلها ألما

: بسرعة يا صباح

: حاضر

لكنها أحست فجأة بالعداء، كراهية هذا الصوت الحاد مثل سكين ما يجز في رقبتها فيلهبها، هذا الصوت يأتي من الأنتريه صارخًا وواثقا فيخترقها، يثيرها فتزيد — حركة الذراع بطريقة لاشعوريه — كلما أحست صباح بالمهانه المباغتة تأتي من داخلها فإنها سرعان ما تسقطها على أقرب الأشياء — فتزيد من سرعة دوران الملعقة الصغيره داخل الكنكه، وتبدأ المياه في الفوران، تتسمع صوت احتراق البن في بطء، وتتأمل الفقاقيع الصغيره وهى تتلاشى وتنتظر بفروغ الصبر — تكون (الوش) السميك الأسود

: قوام يابت ... سيدك نازل ...

: حاضر ...

طلع صوتها خشنًا، مواربًا، فجذبت الصينيه من فوق الرف، صبت القهوه، أطفأت البوتاجاز، ثم بدأت الصورة في التشكل دون إرادتها، الترعة الصغيره وشجرة الصفصاف والأب الجالس تحتها عيناه الطيبتان، جسده المنهك، فانلته الصوف المتربه : خذ يابا

: هه .. إنت

جيتي

يا صباح

المشنه المستديره وأرغفة الخبز الساخن وقطعة الجبن القديمه والخس :

خذ يا با ...

تنطلق حدأة من بطن الصفصافة مخترقة الفضاء قبل أن يجلسها الأب فوق رجله، يسوى شعرها ويمسح عرقها بكفه الخشنة : **الله ... انت وقفة كده ليه يابنت الكلب**

: لا إنت اللى بنت كلب ؟!

(٦)

كانت صباح تعرف تمامًا ما ينتظرها، فهى قد زلت، أدركت بغموض أنها قد زلت من الهلع الذى بدا على وجه السيده، إحمرت عيناها وبدا شعرها المهوش مخيفا فانكمشت من الرعب، انزوت فى ركن المطبخ : **أنا يابنت الشرموطه ؟!!..**

لم تعد تعى تمامًا سوى أنها ستعذب، ولم تعد الكلمات تنقل اليها أيه معنى، صارت بدايات لحركة مدبرة لقتلها فزاد انكماشها فى ركن المطبخ، وفجأة حدث الشئ، جذبتها السيدة إلى الحجرة الداخليه، وضعت (كوبس) المكواة وانتظرت كى تسخن ظلت تنظر الى (المكواة) فى رعب، وهى تختلج، تاركة أطرافها للسيدة التى بدأت فى ربطها، دون مقاومة، فى طرف المنضدة الخشبية الكبيره، كانت تنظر الى المكواة فى رعب، نظرة لا إنسانيه وقد بدأت تشعر بالفعل بالنار وهى تكوى جلدها، ولم تعد قادرة حتى على أن تصرخ، إنقلبت صور المرئيات فى حركة خاطفه بليده وسرى فى بدنها تيار الموت ولم تبك : **أنا يابنت الـ.. لازم أوريكى.**

ثم بدأ الحديد الساخن لفخذها الأيمن، كانت قد مزقت جلبابها فى عنف وبدأت فى بطء وتلذذ فى تحريك المكواه : **آه... يابا...**

نداءات غريبة بدأت تقذفها صباح فى فراغ الحجره، لا تعبر عن الالام بقدر ما تطلب إجابة، كانت قد تحولت الى كائن غريب يعوى،

ينطش بيديه في حركات غامضة ليس لها معنى، عندما دخلت السيدة الصغيرة الى الحجرة نظرت الى (دادة) صباح في خوف، ويبدو أن السيدة — التي كانت تحرص على عدم خدش إحساس ابنتها الصغيرة الحلوة — قد فطنت الى خطورة ما حدث، فتوقفت، سحبت ابنتها الصغيرة الحلوة وخرجت من الحجرة في غضب.

(٧)

- يا عبد المولى
- أيوه يا حضرة العمدة...

كان العمدة — عاكف أفندي — قد تكلم كثيراً من قبل مع عبد المولى في موضوع صباح وعندما نده وهما خارجين من الجامع شعر عبد المولى بانقباض، ماذا سيقول له؟ لكنه كان قد سوى الأمر بينه وبين نفسه سيوافق: **أيوه يا عاكف أفندي.. أي خدمة؟**
بالرغم من معرفته المسبقة بالخدمة إلا أنه تجاهل ذلك: **لا يا بابا...**
ظل صوت البنت يطارده طول الأسبوع، لكنها لا تعلم شيئاً، هي لا تعلم شيئاً عن عاكف أفندي، وعن الخمسين جنيها والكمبيالة: **عملت إيه في الموضوع؟!**
كانا قد انحرفا ناحية الدوار وحين همّ بالدخول أكمل: **فوت علي بالليل أنا عايز كلمة.**

(٨)

- أبابا...
- **أبا مين يا بنت الكلب؟!**

كانت السيدة قد سحبتها من الحجرة الى الحمام، وكانت ترتعش

عيناها الحمراوتان وشعرها المنكوش وقميص نومها الأحمر
وأظافرها الحمراء وصرخاتها المجنونه وزعيق السيده الصغيره الآتي
من الأثيريه وصوت المياه وهي تندفع من حنفية (البانيو)
والموسيقى الآتية من الراديو بالحجرة الداخليه ، كل ذلك يكون شيئا
خرافيا مخيفا يجثم فوق صدر صباح وهي نائمة فوق
البلاط بالحمام ترتعش : لأ يابا ...
توقف وعيها تماما عن الإدراك والرؤية الواقعية لما يحدث :
الدش الأبيض وهو يلمع في تحد ومقبض المحبس النحاسي
وقضبان الشباك الحديديه وخزان (السيفون) الأسود وكومة
الملابس الملقاة فوق الغساله : قمصان النوم وملابس السيدة
الداخليه وغيارات السيده الصغيره والروب : لأ يابا
توقف تماما عند هذه الكلمه كأنها قد تحولت الى ببغاء يردد نفس
العبارة وكأن الحياة قد توقفت تماما عند هذه اللحظة وصوت
الماء يتدفق مزيدا من منسوب ارتفاعه داخل البانيو وهي تنظر
في رعب وألم : لأ يابا..

(٩)

وهو يتحسس طريقه في بطء أحس الولد بالرعشه المفاجئه ،
أشجار النخل يطوحها الهواء وكتل الظلمه يبددها ذلك
الضوء الساقط من الفانوس المعلق في مثلثه الحديدي ، تحت
الفانوس كان حجر الطاحونه القديم رابضا منذ وعى العالم البلد ،
ويجعله ذلك الوجع الدائم أسفل البطن يرفع طرف الجلباب ، بعد
أن بال أخذ في البحث عن قطعة حجر جافه ، طوحها في
الهواء ، وبدأ في مقاومة ذلك الهاجس الغريب الذي بدأ يهاجمه
ذلك الإحساس بأن ثمة شيء ما ، مفجع وخطير سيقع ، - دائما

٢

ينتابه ذلك الإحساس فور خروجه من قاعة التليفزيون حيث المرأة التى تغنى والمرأة التى تحمل زجاجة الكلونيا فى الإعلان — لكنه كلن عينيها هذه المرة، بدأ حين استقبله عواء كلب أثناء ض بعيد، نداء غامض وغريب ينطلق وسط الظلام صار خايرعش جسده، وعلى الفور تأتى صورة أحبائه، أباه، أمه، وتجيء صورة صباح غامضة منذ رحيلها، توقع الموت المفاجيء أو السقوط من فوق سلم أو عضة كلب، تأتى ملفوفة فى ضبابية وثمة تردد كلمات غريبة، ينخلع قلبه لحظة رؤيتها الخاطفة وهى تختفى فجأة وبغتة، ينقب بعينيه الضيقتين خلف شجرة الجميز فى المدخل، داخل الزير خلف الباب الكبير لكنها تختفى، يندهها بصوت خافت مخافة أن يسمعه أحد، وتظل تكبر فى داخله فكرة أنه لن يراها أبدا فيقترن صورة أبيه بالإدانة، ولكن صورة عاكف أفندى تقف حائلاً بينه وبين الإستمرار فى الرقية، فتجتاحه موجة من الكراهية، كراهية ليست موجهة الى أحد بالذات فيركل الأحجار التى فى طريقه ويشعر برغبة لاتقاوم فى الركض، فيجرى، محاولاً باستماتة إعادة صورة أخته البعيدة وطرد ذلك الهاجس الخطر، لكن المشهد يلح، أمه تلبس السواد وتلطم خديها وجمع النسوة والصراخ، الرجال جالسون فى هدوء وحزن فوق المصطبة أمام الدار وجسد صباح الصغير الميت فى قاعة الفرن عارية تماماً داخل طشت الغسيل النحاس المستدير، والخالة جوهرة تغسلها وهى تتمتم بسور صغيرة من القرآن، فينتفض، ويستعيذ

بالله ، ويتوقف ، فتشده النجمة اللامعة في السماء فيتطلع
إليها في رعب ، وتبدو الأصوات الحادة التي بدأت في
النزوع كأنها آتية من عالم آخر ، صوت وابور الطحين وهو
يشطب ... تك ... تك ... تك ... تك ... ضربات حادة
لكنها بعيدة ، أصوات البهائم المتمردة داخل الزرائب ،
والحمير ، إلا أن عواء الكلب ، ذلك النداء المتواصل كان
يخترق طبلة الأذن ، يهزه بعنف فيتأرجح المشهد من جديد:

: مساء الخير يا عم شتا .

: الله ... مين ؟! إبن عبد المولى ... إنت هنه ؟!

عندما لمح عم شتا الخفير الذي عليه التحية باسماته على
ذلك ينقذه .

ويرد عليه في صوت واطئ : إيوة ... إيوة .

: طب روح روح

سد أكم صهيت .

أبريل ١٩٧٧ –

◉ مثلما كنت في السينما ......



(١)

• تتشنج الأصابع فوق الرقبة ، تلك الدائره الحمراء تبدأ في الضيق، بسرعة ، مئات الحلقات المتداخله ، تصغر ، وكأنها تركض نحو النقطه ، ثم النقط الحمراء المركزه ذاتها وكأنها الصفر .

(٢)

• في البدايه شعر بالخوف ، عندما وضع يده فوق الجرس وسمع خطوات الشبشب وهي تتجه نحو الباب ، إكتشف أنها وحيده ، وأن الشغاله قد ذهبت الى مكان ما ، وأنها آتيه نحوه ، وستفتح الآن ، ستفرح به : إزيك يا خالتي . عيناها تشعان بفرح مفاجئ : نقلما يزورها أحد ، وهو ابن الأخت الوحيد المتبقي لها : أهلاً ياحبيبي ... لأ ، إلا هذه الكلمه ، لم يكن مستعداً لسماعها الآن فشعر بدنه للحظة لكنه سرعان ما تماسك ، ولكن السائل الحارق كان قد دلق بجوفه ، وبدأ يسري مع الدم ، : إزيك ياعبده ...

معنتش بتزورنى ليه ياضنايا ؟! حدق ربما بدون وعى فى تلك العروق الرفيعه المكونه لشبكه متداخله تبدو لا نهائية على إمتداد الصدر و الرقبة ، لماذا تحمل عينين طيبتين ؟! ، ـ هذه العيون البنيه الصغيره ، ـ هاتان العينان البنيتان الصغيرتان ، وهذه القلمه ، هذه الدفعه الجديده من الصود الكاويه تصب فوق المعدة ، الفرحة فى القلب تكوى ، ياضنايا ، لكن الخارج ياخاله ، كرنفال العربات و القمصان الجديده و الأحذيه و المسارح و الكتب ، و اللحم ، اللحم فى الخارج ياخالة ، : اقعد يا عبده ... إنت واقف ليه يابنى ؟! فهاد قيمه ، خال من الأسنـــان ، صغير و متكور ومجعد الجلد ، تأمل شعره شديدة السمرة نافره وطويله نابته فوق الشفه العليا تكاد تصل فتحة الفم ، جلس ، تأمل المكان ، بسرعه ، كان يبدو ـ بالرغم من البدايه الموفقه ـ مرتبكا ، دس يده بين كمر البنطلون و اللحم كانت السكين الصغير بارده ، إرتجف فجأة ، وسحب يده بسرعة : مالك ياعبده ؟!. كل شئ مرتب ونظيف ، المنضده الخشبيه ، الكراسى الخشبيه ، وفى المواجهه ، لوحة غامضة الى جوار صــورة التاجر العجوز الميت ، لكلب يركض فى فراغ ، سـاقـان مقوستان وعيناه شاخصتان الى أمام ، ثم لاشئ ، لا شجره ولا جبال ، فراغ مطـلق .

(٣)

• عبده عبد العظيم الشبال ، ٢٩ ، ليسانس فلسفة من جامعة القاهره ، ١٩٧١ ، طويل ورفيع ، مدرس فلسفـة

وليس لغات أو رياضة ، ٣٠ صافى ٢٤,٥ ، عينان عسليتان
كبيرتان تلتهمان الأشياء ، شقة بالجيزة مع أحد زملاء العمل
يدفع ٧ جنيهات ونصف ، دودة قراءة منذ شبابه المبكر
لا ارتباطات أسرية فهو قد استطاع أن يجتث جذوره من
البلد على حساب تكوينه العصبى ووجدانه .
مواليد ديسمبر ١٩٤٧ .

(٤)

● حين انسحبت يده بسرعة سقط ذلك الشيء البارد ، أحس
بالبرودة وهى تتسرب لا مسة الجلد خارجة من فتحة البنطلون
فوضع قدمه فوقها بسرعة ، التفت الى العجوز التى كانت
تنظر الى مكان ما فى وجهه – ربما ذكرها وجهه بشيء ما –
ثم قامت بغتة مما أحدث اضطرابا مفاجئا : هقوم أعملك
قهوة ... البنت بنت الكلب تحت من بدري . ولكن جدار
المثانة لم يستطع المقاومة ، فدفع ، فى حركة قذف عنيفة ،
بقطرات الماء الدافئة التى زحفت – عبر القضيب المنكمش من
الخوف – فوق لحم الساق مكونة بقعة مستديرة فوق خشب
الأرضية القديم والنظيف فى ذلك الوقت .

(٥)

● قالت نسمة – بصوت مبحوح من كثرة الكلام – بأن موضوع
الزواج بقدر ما هو ملح فهو شبه مستحيل ، كانا قد بلغا سينما
مترو فى نفس الوقت تقريبا الذى يزدحم فيه هذا المكان ،
فلف ذراعه حول خصرها ، كانت دافئة ، وكان جسدها
يرتعش ، كانت فيما يبدو شديدة الانفعال ، لأنه استطاع
أن يلمس ذلك ، وأن يحس ، وهو يحاول أن يلم ذلك الجسد

الحرون مثل شئ يُبندلق ، بالعرق الغزير أعلى الردفين ، في تلك المنطقه الفاصلة بين البلوزه والبنطلون ، وقفت ، واجهته تماما ، عينان سوداويتان واسعتان تلتهمان الوجه :
• مقدرش يا عبده ... هقلهم إيه في البيت ... إحنا بقالنا أكتر من سنتين ... كانت تتكلم بسرعة ، وكانت الكلمات تصل اليه - عبر زحمة الخارجين من السينما بصعوبة شديدة ، فتأكد من أن عينيها شديدتى السمرة وأنهما حينما تغضب تصير شديدة الاثارة فسحبها من ردها برفق : تعالى ... سنمشى قليلا ونتفاهم .

(٦)

• كانت السكين الصغيره تحت قدمه ، وكانت العجوز قد جلست ، وضعت صينية القهوه فوق المنضده ، لم يجرؤ على النظر الى تحت ، بالتأكيد البقعه والطرف اللامع واضحان ، فأحس بأن عينى العجوز ترقبانه ، لكنها باغتته : إنت ليه ما بتحش البلد؟!
- ههه ... كانت الجمله قد اخترقت طبلة الأذن لكنه حدق من جديد في الصورة المعلقه فأكملت : المرحوم كان موصينى أبنى جامع هناك ... بفكر أسافر ...
حاول أن يزحزح السكين تحت الكرسى لكنه خاف أن تلاحظه حاول أن يتماسك ، يجب أن يبدو طبيعيا ، كان قد عدل عن فكرة القتل بالآله ، نعم ، سيخنقها ، ومع طلوع الروح ومغادرتها الجسد سيدله عن مكان النقود ،.
- متشرب القهوه ... عجباك الصورة ولا إيه ؟!
- لا ... أبدا ... بيد مرتعشه تناول فنجان القهوه ، كانت الأصوات تأتيه من تحت ، من الشارع ، مزعجة ، هتافات

غريبه وغامضه حين تصل الى الدور الثالث ، ... زا ... ما ... لك.
تعلوا فجأة وللحظة قصيره مع الديقاع المرتفع لكلاكسات
السيارات المزمجره ... ثم الصمت فجأة ، ودقات رتيبه
خافته لقطرات ماء آتيه من المطبخ ، منتظمه ، مع دقات
القلب ، الذى بدأ يتعرض لموجات عنيفه من الدم ، رائحة
عاديه ، مع سرعة ، وبقوة ، أعطته دفعة جرأة مفاجئه ،
فقام دون أن يصل فنجان القهوة الى فمه ، وضرب السكين
بكعبه فزحفت تحت الكرسى محدثه صوتا مسموعا ، واقترب
منها ، اقترب من الكرسى الذى تجلس فوقه .

(٧)

● كانت قد رفضت الجلوس فى - الاكسلسيور - بشده ، وبان
الغضب فى عينيها الحلوتين ، سحبته من يده بقوة حين هم
بالدخول ، فسارا - شبه متباعدين - متوجهان الى ميدان التحرير.

(٨)

● أتوبيس ٢٥ م مصر الجديده ، جاء فركبته ، ظهره الى دار الآثار
وأمامه الميدان الكبير ، سعيد الكوبرى ، لكنه توقف وسط
المنتظرين للأرقام العديده ، حتى فى الولوج الى عالمه المحبب
عالم الصور والكوابيس ، المتعه المجانيه والتحلل من الفلسفه
والاقتصاد والسياسه ، وهاجمه الحلم ، يحمل سهام فوق
ذراعيه ، هى طفلة ، يركض فى ميدان التحرير ، فى الشوارع
المجاورة ، يدخل الى جروبى ، يخرج من جروبى وهى
تكبر فوق ذراعيه ، صدرها يكبر ، ساقاها تطولان
بطنها ينتفخ ، يجرى فى شارع خرافى ، ثم يجد النهر فى
مواجهته ، التمساح فاتحا فاه ، له وجه مهرج ، وجسد

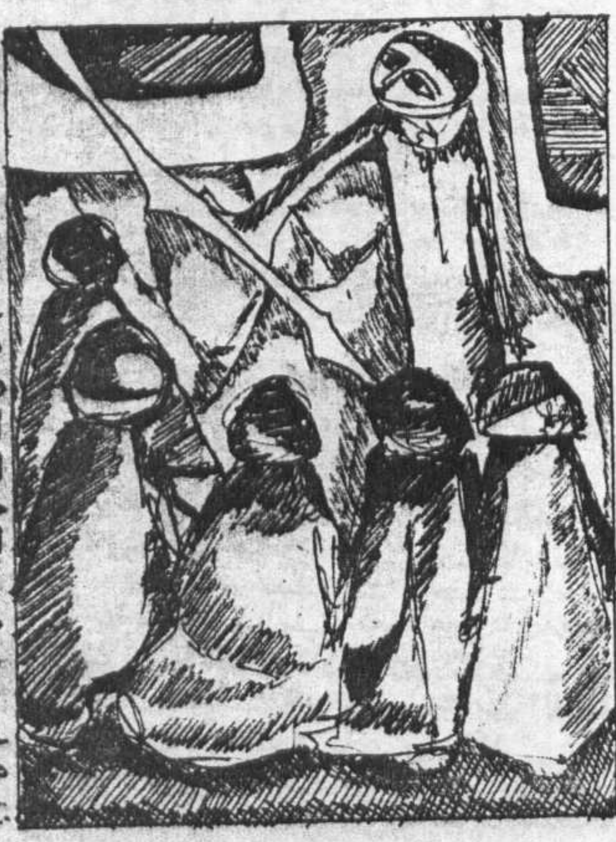
عربة بيجو ، وعيون ممثله سينما مشهورة ، ثم ترن الكلمة
في أذنه : من فضلك يا أستاذ ... الساعة كام ؟ يلتفت ،
الرجل عجوز وأصلع ، زجاج نظارته يلمع ، قصير : محمد
فريد ... فيرفع الرجل صوته : سألت حضرتك عن الساعة
فيرفع ذراعه اليسرى ، يحدق في الساعة : مات وحيداً
ومهجوراً في المانيا ... عام ... عام ... ينظر الرجل اليه باستغراب
ثم يهرول وهو يتمتم بكلمات غامضة ، ثم تنزلق
سهام من فوق ذراعيه ، تنظر اليه بنفس العيون التي تلتهم
الوجه : سندخل أولادنا مدارس أجنبيه ... البنت الأولى
سنسميها سوسن لكي ندلعها بسوسو ... يقرر :
الزواج أردأ الأشكال الاجتماعيه التي إكتشفها البشر ،
تنبهت السيده الواقفة الى جواره : بتقول حاجة يا بني ..
كانت عجوزاً ، في الصدر عقد ذهب ، وفي الذراعين
أساور ذهب ، وفي الفم أسنان ذهب : لكننا سنضطر
الى تأجيل الزواج ، الفان شقه ، الف ، ثلاثه آلاف ،
تنظر السيده اليه ، لا تتكلم ، تحدق في عينيه تماماً ، يحدق
في عينيها : س... هام ... لا بد من السفر أولاً ... تنسحب
المرأة في بطء ، خلفه دار الآثار ، وأمامه صدن
الكيروسين ، سأذهب الى الكيروسين ، أشربه كيروسين
أتنفس كروسين ، لكن السيده تذكره بالخالة العجوز ،
فيهم يعبرون الشارع ، وهو يتمتم : عبر .. يعبر .. عبوراً
أم اعتباراً ؟! سيسأل صديقه مدرس العربي في ذلك
يفلت من التيار الجارف لجميع ماركات السيارات
الراكضة في جنون وفوضى ، فيجد في مواجهته ، مجموعة

الاعلانات الكبيرة ، سجائر أجنبية ، صابون أجنبي ، ملابس أجنبية ، أدوات كهرباء ووجوه ممثلات ، وأجساد عارية خرافية الروعة ، فيقرر : القاهرة مومس

(٩)

• تتشنج الأصابع فوق الرقبة ، تلك الدائرة الحمراء تبدأ في الضيق ، بسرعة ، الآن الحلقات الحمراء المتداخلة ، تصغر ، وكأنها تركض نحو النقطة ، ثم النقطة الحمراء ذاتها وكأنها الصفر . كأنها الصفر .

عبد الله عبد الجواد نصر ٢٣



أنى أخق يتعمل فيها
كده ياعبده ؟!
لاشئ أبدًا ، تهويمات
ذرات الضوء في منتصف
النهار ، الساقيه التى تلف ،
قرص الشمس المتوهج ،
أشجار سنط على مدى الشوف
حدق في قرص الشمس ، الوان
طيف ، أحمر ، برتقالى ، أصفر
والطمى ، ثم حقول القطن
المترامية الأطراف ،
الجاموسة في المدار
دورات متهالكه ، وصدى
الصوت يرن في رأسه ،
أن يهجم عليه فجأة ، التراب
ذرات غير مرئيه وبعيده ،
قريبه ، في رئتيه ، داخل رئتيه
تماما ، في الحلق ، أن يطلع
عليه أحد من وسط السكه
مصطفى الغريب بالذات ، أن
يردد نفس اللحن ويهجم

عليه ويقتله ، كان منكفئاً ، منهالكاً ، خلع جلبابه المبتل ، علقه على المدار ، وأنين ، صوت الكلاب من بعيد ، من داخل البلد ، ثم مصطفى ذاته ، الجسم الممتلئ ، والرعب داخل المقلات تماماً كان قد نزل الى بطن الغيط ، الى داخل القطن ، كان يبدو بسرواله الطويل دفانلته الصوف القديمة كشبح ، طلع عليه من الداخل :

: ودي عملة تعملها يا بن عبد الجواد !؟

: كل شئ راح لحاله يا مصطفى وبلاش رجوع للموضوع ده.

كانت القهوة ممتلئة ، رجال عائدون من الغيطان ، منهالكون موسومون ومهسوسون بالجهاز ، نصف ٢٣ بوصة ، وداخل الإطار المضئ وسط الظلمة كانت ، كانت وردة تغني ، بعضهم القهوجي دائماً غاد يا خي بشر ، وكانوا مبهورين ، كانوا يرددون المقاطع الأخيرة من الأغنية ، كانت عن السفر ، والرغبة في إستبقاء الحبيب ، والعتاب.

— والله يا بن الوسخة لازم أوريك ....

إعتدل ، إنتصب واقفاً وهو ممتلئ بالرعب ، سيجهز عليه الآن ، إستغل منه تماماً ، كانوا يقهقهون ، وهم يعبون الشاي ، والجوزة ، والسجائر اللف ، وأحاديث مكررة ومصرورة عن الدودة والجمعية والانتخابات الجديدة ، وكان هو ، عبد الله عبد الجواد ، يحدق في بلاهة ، في تلك المنطقة بالذات من وجه وردة الفم ، كان مفتونا بالفم ، هاتان الشفتان الممتلئتان ، وهذه الرغبة المتوحشة داخل اللثة ، في عمق اللثة ،

— أف أختي يتعمل فيها كدة يا عبده !؟

— يا مصطفى أخي غلطان وضربت نفسي بستين مركوب ومش عاوز شر ، إخزي الشيطان واسكت.

كانت الشمس قد استدارت نحوه، في مواجهته تماماً، فبدا
عريناً كثور، منتفخاً، والشوعة في يده، وأشعة الشمس
تحفر فوق وجهه صوراً غريبة، وتدفن نفسها داخل عيونه
ذاتها، كان كل شيء ناعماً تماماً، ولا شيء أبداً بادياً في
المواجهة، حيطان طويلان من الدور الطينية، وسواشي
حطب القطن القديمة، وكتل الظلمة المترسبة، والجامع،
كان فم وردة مرسوماً أمام حدقتي عينيه مباشرة، الشفتان
الكبيرتان تبتلعانه، وبواقي الشاي المدلوق في جوفه
وطعم دخان الجوزة بين أسنانه، وفي أذنه ترن أصوات
غريبة مطموسة ومجهولة المنبت، أشياء غامضة، هو
الآن لا يعي شيئاً أبداً، يخبط بقدميه المفلطحتين في بطن
التراب، ويمشي متوهجاً، متوجاً كملك، ممتلئاً
بشاشة الجهاز، ووردة، والفم حين منطبقة الشفة العليا
فوق السفلى، تماماً، والشفتان البارزتان إلى أمام والغويصان
في بطن اللثة، أحس بالوهج في الداخل، وتراكمت داخله بين
الصور في وعيه، الكلاب والبهائم والقطط في مواسم
الولادة، والضرر المنتفخة، وهذا الدبيب المرعب
داخل ثناياه يا ناس.
— إنت عارف العصادي منايه يا عبده؟
من الخوخ، هتتكسر فوق دماغك.
أحس بلحظة الرعب الحقيقية تطبق فوق يده. فأخرج
المطوة، وصار جسداً صلباً فجأة في مواجهة الشمس،
والجاموسة الدائرة على بعد، ومصطفى الغريب
ذاته، كان باب الدار مغلقاً، كتلة من خشب الجميز العجوز،

وكان يدرك أنها بالداخل، راقدة لابد فوق السرير، في
مواجهه الزريبه، كتلة صلدة من الخشب، حائط خرافي
من ملايين الذرات الصماء الميته، وكان مصرًا،
ولد واعيا، ومهتاجا، كان كلب حسين عيد يعوى في
مؤخرة الحارة، كان يعوى بعنف، وكأن شيئًا مرعبًا
سيحدث، وكان ثمة نهيق غامض لحمار لا يعرف مصدره،
والسكوت المطبوع، بعد ذلك وقطرات الندى
المتساقطه، ضبط الباب بعنف، الزوج في الترحيله والمرأة
في الداخل، وكتله من خشب الجميز الميت في المواجهه ولن
يمنعه الرب ذاته، ضربتان بعنف ثم تهالك الخشب،
صار الباب هواربًا الآن، صار مفتوحًا...

– أنا أختي يتعمل فيها كده يا عيدة ؟؟

– قلت اخزى الشيطان يا مصطفى...

في الداخل، بعد خطوات، المرأة، الفم الحقيقي والصدر، اللحم
والدم، الرؤى الحقيقيه والممسوكه، العينان الموغلتان في
سواد خرافي، وجد نفسه ملاصقا لكل هذا، ممسكا به
فبدأ في استرجاع وعيه من جديد: كانت نائمه.. كانت الليلة
حارة... كانت عارية الأفخاذ تمامًا: وكان فم وردة مازال
متوهجًا في داخله، بحلقت، حدقت فيه برعب، كان
باديًا كشبح: متخافيش يا سوسن... أنا عبده. وكأنها
في حلم فتحت عينيها بقوة، وأحست بأن رجلًا
إلى جوارها، إلى جوار السرير، أربعة أعمدة مرتفعه
من الحديد، المرتبة مرتفعه، وثمة كتاكيت صغيرة تمرح داخل
القاعه، أحست باللهب في ظهرها، بالرغبة، بهزة التفجير

داخل نوبات الرحم وسلسلة الظهر، وبالشوق المجنون
للعبة الممارسة، هتفت في ضعف
: الله ... وإيه اللى جابك دلوقتى يا عبده؟
ثم كانت الصرخة التى لا بد ستخرج مدوية لا إرادية ...،
استغاثة وسط السكوت، قاتلة لكل ما فى داخل الدم
من سيولة وملئ أعصاب اللحم من رغبة.
— شيطان إيه يا ابن الكلب ... إنت ألعن من ميت شيطان
استدار القرص الأحمر للشمس تماما وغاص فى ماء الترعة الذى يسير
فى بطء، وفجأة توقفت الجاموسة عن الدوران، وكفت
دواليب الساقية عن الحركة، وهمد كل شىء، وهجم
مصطفى الغريب بكل ما فى جسده من فتوة وبعصاة
الخوخ يرغب فى الرأس، ولمعت المطواة فى يد عبد الله
عبد الجواد، وبدا وكأن مراسيم غريبة تؤدى للحدث
المقدس، ضربة فى منتصف الرأس تماما تشق الجمجمة
وفى ذات اللحظة التى هوت فيها عصا الخوخ على العظم
كان حد المطواة المسنون قد غاص تماما فى
الصدر، ثم لا شىء بعد ذلك، استأنفت
الجاموسة دورانها المنتظمة داخل المدار، وعادت
دواليب الساقية فى قذف الماء إلى الخارج، الشرايين
واهتزت شجيرات القطن من بعيد ممتلئة ومزدهرة
ومتوهجة تحت أشعة شمس الظهيرة التى
لا تعى شيئا

يناير ١٩٧٢.

K7

● الحلم . الفعل . الضد

١ـ الصوت ـ الحلم .

في الليالي البعيده كنا نركض في الطرقات ، نحمل في أعيننا وهج البيوت المضاءه ، ليت ، ولكننا كنا ننتظر قدومه ، كان الواحد منا يحدق في السماء ، يتأمل قرص القمر وهو مكتمل تماما ، ضاربين عرض الحائط بأصوات الكلاب الآتيه من بعيد ، بكل ما تحمله هذه الأصوات من إحساس فاجع ، ينخر في عظامنا المتعبه ، وكانت أشجار الجميز العجوز وأشجار النخيل تبدو مثل عالم من الأشباح يقف متحفزا ومهددا عالمنا ، وكنا نسأل القمر : متى سيجيء ؟!



وخلع ملابسنا الممتلئة بالرقع، ببقايا روث البهائم
الجاف، بطبقات العرق المتصلبة والملتصقة بالتراب
مكونة طبقة سميكة من الخشونة، نخلعها ونضعها
داخل - المصلى - فوق الشط، ونقفز الى الماء،
وكان النهر واسعا ورحبا، يضمنا في طيبة، يفتح ذراعيه
لأجسامنا المتعبة، فنسبح ضد التيار دائما، ضاربين
الموج بأذرعنا نهتف في جنون بكل اللغات
الممنوعة، لكننا نسأل النهر أيضا: **متى سيجيئ؟!**
وكانت تجيبنا أمواجه بأن نصبح أكثر قوة، فتدفعنا
إلى الوراء، كنا نلمح الأضواء البعيدة للمدن، شعلة
غير محددة فنصرخ: **ربما هناك...**
ونضرب الماء في قوة، قاصدين لا مكان، مهددين
بالظلمة والغرق والموت، وكنا لا نخاف الموت،
كنا نضرب الماء ونضرب ونقاومنا الموجات المضادة
فنلهث محاذرين من دخول الماء في أفواهنا، ثم
نخرج من قلب النهر ونستلقي فوق العشب الأخضر
فوق ظهورنا، حيث نظل محدقين الى القرص الأبيض
في إسمائه، إلى الضوء البعيد، ولكن القمر لم يكن
يتكلم، كان صامتا وحزينا ولا يجد أية إجابة على سؤالنا.

٢- الصوت. الفعل

دلف الى الحجرة في
سهولة، فبعد
أن تسلق (السور الكبير)

تمكن من القفز في الحديقه، ووجد نفسه في مواجهة الباب
المفتوح فدخل : السرير المرتفع قليلا و اللمبه الجاز
تخفت ضوؤها و يصفر ووجده نائما، جسده الضخم
كجسد بهيمه راقده في سكون، تأمل أعمدة السرير
الزرقاء في النهاية الكرات النحاسية صفراء باهتة فكر :
لو لم يعطى هذا اللون الإحساس بالموت ... لكنه
أغمض عينيه، كان الرجل يشخر في سكون، يحلم،
فتساءل : هل من الممكن أن يحلم ؟! كان يعتقد أنه لا
يمكن أن يفعل ذلك، إذا كان هناك إمكانية لوجود حلم ،
وبدأت الأصوات تضايقه : صوت خافت من بعيد
لكلب يعوى ... صوت ضفادع تنقنق في الحديقة -
صوت تنفس الرجل الذى بدأ يعلو .. لكنه كان قد قرر
صار ذلك يمثل بالنسبة إليه شيئا حتميا ، فحين بدأت
الأمور في التكشف كان إحساسه القاتل بالغربه
وبعبث الفعل قد إنهار إنهيارا تماما وكأن عالمه قد صار رحبا
ووضاءا وكان مستعدا الآن يفعل ذلك في مقابل أن
يحافظ على هذا العالم الذى بدأ في القبض عليه، طارت
بعوضه فجأة في حركة دائرية حول المصباح محدثة
أزيزا ضخما طن في أذنيه لحظة ففتح عينيه عن
آخرهما : الرجل ملتفا بلحاف أصفر وبطانيه حمراء جديدة
مقسمه الى مربعات كبيرة فتأمله : رأس ضخم ملتف بطاقيه
صوف داكنه .. جبهه عريضه ... ثمة خطوط رفيعة تكون
شبكة غاية في التعقيد ... صدغان ممتلئان .. أنف
كبير ومقوس بشدة وكأنه منفصل تماما عن الوجه

مثل جثة كلب ميت ... وفم نصف مفتوح ... كرتان من اللحم تبرزان مكان العينين ، واخترقت رأسه مثل فكرة مجنونة أصوات آتية من الشارع فتعجل. وعندما فعل ذلك كانت قطرات الدم تتساقط في هدوء ورتابة من أعلى إلى أسفل ، في صمت ، يحل اللون الأحمر القاتم محل سيل اللعاب الذى كان رفيعا ولامعًا ويتدفق الصوت : أغنية جماعية هادرة آتية من مكان بعيد ... ممتلئة بالحبور وبالفرح .

٣- الصوت - الضد .

هي قريتي ، وأنا أعرفها ، خريطتها منقوشة في دماغي ، وحواريها الطويلة الملتوية الملتفة دائما بالظلمة الدامسة والرطوبة وشعلات لمبات الجاز التى تراقص مقاومة موجات الهواء الطازج المبلل ، ثابتة ، تزحزح دائما كتل الليل في حركات طردية جوله

مشعلة الحرائق أحياناً ووضاءة دائماً: دلفت
الى أول حارة للبحث عنه، كان المشهد ماثلاً في
مخيلتي، سأجده مفترشاً الحصير أو مقرفصاً
أمام النار، الحارة طويلة وضيقة، الهواء البارد يلسعني
والأصوات العديدة تطاردني لكنني لمحت على
البعد بصيصاً من ضوء فجريت نحوه، تتعثر قدمي
بالحجارة الصغيرة أو تجوس في بركة ماء لكنني
قد لمحت البصيص، سأصل: أمام باب الدار
كانت العجوز جالسة، كان باب الدار مفتوحاً، كان
شعرها طويلاً ولم أستطع أن أتبين لونه في الظلام،
كانت كتل الظلام تتكاشف الا أن عينيها كانتا
تلمعان، لم أخف، اقتربت منها: سالخير يا خالة
لم ترد تحيتي وكنت أشم رائحة صوتي
نفاذة وتلمع في الظلام، كانت ممسكة
بحجر كبير أسود وتدق فقلت
لنفسي: ليس لدقها أية معنى فوقفت فجأة
ونظرت تجاهي: عينان حمراويتان
مشتعلتان وبدهشة وعجوز والحجر
الكبير كان داكناً جداً حتى أنني تعجبت كيف
كانت قادرة على حمله: من هنا .....
أشارت الى اليسار حيث تنحرف
الحارة دون أن يبدو عليها أنها قد سمعت سؤالي،

على الناحية غرس المثلث الحديدي الذي يحمل
الفانوس المطفأ في قمة الجدار القديم، كان
الطلاء قد تساقط منذ زمن بعيد وبانت حواف
الحجر تنظر إلى أسفل في دعة حيث كانت العبارات
التي أحفظها من الست منقوشة، ومحاولات
ساذجة لرسم أشجار نخيل وجمال، ومساجد
كانت القباب مرسومة بطريقة عفوية أقرب إلى
مثلثات منها إلى أنصاف دوائر وقمم النخيل
بلون بني باهت الآن. علامات الهلال كانت
خضراء، وكذلك كانت ألواح الزجاج الباقية في
هيكل الفانوس، تركت العجوز تدق وانحرفت
ناحية الجهة التي حددتها لي. بدت الحارة
طويلة وملتفة مثل ثعبان، لكنني لم أتراجع،
وتذكرت فجأة بأنني لم أوجه إليها أي سؤال.
كيف عرفت ماذا أريد؟! اندفعت بكل قوتي
طاردًا من ذهني أية بادرة للتوقف، كنت أعرف:
إذا بدأت الأسئلة فلن أصل.. كانت شواشي
حطب القطن القديمة متدلية من فوق أسطح الدور
في خبث، حية، كأنها ثعابين مستنفرة، وكانت القطط
الصغيرة والكبيرة تنط من سطح إلى آخر
دون توقف وبطريقة غريبة مثل شلالات
المياه المندفعة، لم أكن أسمع أصوات الكلاب
أو الصراصير — صراصير الليل — وتوقفت عيناي
عن ممارسة الرؤية وفجأة وقف قبالتي مباشرة

قط أسود كبير، كان قطعة من الليل حتى أنني خمنت
أنه سيبتلعني: حدجني بعينين إنسانيتين
كبيرتين فنظرت داخل عينيه في تساؤل:
عينان خضراويتان معبرتان ولكنني إنتفضت،
كانت خريطة القرية مرسومة بطريقة واضحة
داخل عينيه: الأشجار والبيوت وأنا ......
بطريقة غامضة أمام إحدى الدور رأيت المرأة
نقطة غامقة بعيدة ثم البصيص والحجر والفانوس
وشهقت، ففي نفس اللحظة التي كنت
سأراه فيها إستدار القط وبدأ في التحرك
متوغلاً داخل الليل والظلمة والأشياء التي
تتحد الخ، ومشيت وراءه، وحتى عندما
إكتشفت أنه أكبر من أن يكون قطاً لم أخف،
سأجده، وتوقفت فجأة عندما انحرف ناحية
دار قديمة، كنت أعرفها، أخذت أتذكر
إسم صاحبها دون جدوى، لقد مات منذ مدة
ولم يكن له أولاد، لا، كان له ولد يصنع لنا
عربات صغيرة من الصاج وأغطية الكوكاكولا
ونحن صغار، كان ضعيف النظر ويملك
موهبة فذة في التشكيل، وكان يصنع لنا العرائس
من الطين بعد دهنها بلبن الجميز فتصير
كالحجر، ولكنه مات هو أيضاً في الحرب

وظلت الدار مهجورة : كنا نمارس فيها ونحن
صبية كل الأفعال الممنوعة : التفرج على أعضائنا
التناسلية وقياسها ورؤية أفخاذ البنات الصغار
والوهج البدائي في عيون تتناقف لحظات الكشف
الأولى لعالم مرفوض ومحبب ، كانت قد فقدت
إحدى جدرانها والسقف ووضعت هكذا
في مواجهتي : مكونة مربعا ناقص ضلع
يسد الحارة ، لكنني لن أضيع الفرصة ، فدخلت
وراءه ، كنت أتمنى أن ينظر تجاهي ، كي
أتمكن من إعادة النظر في عينيه ، كنت متشوقا
لرؤيته حتى داخل عيني الحيوان . لكن القط
كان قد اختفى فجأة فتساءلت : هل أعود ؟
لكن ذلك لم يكن ممكنا فقد طلع للجدران
الثلاثة جدار رابع بنافذة غريبة تشبه نوافذ
القلاع القديمة ، وصرت محاطا بالجدران وطبقة
الظلمة السميكة والرغبة في البحث عنه والأصوات
التي بدأت فجأة في التصاعد : مواء الدف
القطط وخليط من نقنقة ضفادع ونباح كلاب ونهيق
حمير ثم زقزقة عصافير فأخذتني الدهشة
: كيف يمكن سماع صوت العصافير في الليل ؟!

أغسطس ١٩٧٤

حكاية إعتيادية من شارع الجيش



(١) تطلعت أشعة الشمس في غباء ومحايدة لما يحدث.
فكرت لحظة في أن تحط فوق عالم الشارع بزخمه
وتشكيلات الأشياء الغريبة التي تحتويه لكنها
جفلت ،: إستدارت الى المستطيل الصغير الأبيض
المكتوب فوقه باللون الأزرق - **شارع الجيش**
(**الأمير فاروق سابقا**) ثم إكتشفت أنها لا بد أن
تشحذ همتها وتنبثق مثل قنبلة لادفة طول الشارع
بلهيبها وتوترها الأزليين . إستقبل جسد الشارع غضبة
الشمس في تلذذ طافحا عرقا أسود إحتوى قدم مسعد -

الصغيرة الحافية فصرخ: أمشاط ... مغانا البلاستيك
.... البلاسستيك.

(٢) تقلبت - الأم - في وهن فوق الكنبة الوحيدة بالحجرة. آلمتها وخزات الخشب التي ترسم دوائر بنية فوق جسدها. أدركت وهي تتأمل تلك الخطوط (بشكل غامض) بأن ذلك ربما يكون لحدها فأرعبها ذلك، عاودتها ذكرى نومها وهي طفلة في النعش الخشبي المرعب في ليالي الشتاء في قريتها البعيدة، حين يرفسها الشيخ إبراهيم في الفجر ويتأمل جسدها الصغير في شبق جنوني يطفح من عينيه المريدتين. جاءتها الأصوات من الحواري والأزقة حول ميدان السيدة. لقد باتت تألف هذه الأصوات، صارت شيئاً حميماً يلفها مع ضبابية ضوء الصبح وقسوته وهو ينفلت في خبث أبدي من بين خصاص الشباك فيعري أشياءها القليلة المتناثرة بالحجرة: وابور الجاز والحلل وبقية الماعون... ومسعد نائماً ملتفاً ببطانية قديمة متآكلة فتنده عليه في وهن: **واد يا مسعد.. قوم يا بني.. الفجر طلع.**

(٣) رتب مسعد بضاعته (رأسماله الضئيل) في علبة كرتون كبيرة وصنفها بدقة... علب الكبريت، إبر الغاز وأمشاط والأقلام الملونة وبنس الشعر ثم نسخ

من سورة يس وبعض الأوراد التي يصنعها فوق سيقان
الجالسين في الدكك بات العامة. هاجمته الأصوات مثل
رائحة متعفنة فانكمش، أحس كأن شيئاً صلباً انغرس
في قلبه وود لو يرتمي في حضن أمه فوق الكنبة. أحست
الأم أن مسعد ... فتها، شمت رائحة خوفه فقد ... عينيها
عينيها: **مالك ياواد... مش سامع الند** رده؟!

كانت (الله أكبر) تطن في فراغ الحجرة آتية من مئذنة الجامع
في عنف فرد مسعد: **أنا خايف ياامه**
اعتدلت الأم فوق الكنبة. تنبهت ... أن ذلك ... نتيجة
المشاجرة الصباحية مع ضناها مسعد فصرخت أمره صريحة:
امشى انجر بلاش كلام فارغ ....

(٤) نزعت البنت ... من الباب فأضاءت شغاف قلب مسعد،
ولما تمكن من السيطرة على جسده هتف: نرجس؟!
فاندفعت لا بدة في عتبة العتمة تحت خشب الباب
الكبير، لتسلل مسعد في بطء منتزعاً عن وجهه الشارع
والتصق بها. تدحرجا مثل فرخين صغيرين يلعبان في بركة ماء.
تأمل عينيها العسليتين المكحولتين بطريقة بدائية وأحس
إرتجافة جسدها الصغير وطوق رعانتى ... يدير رها المن... البتين
وشعرها الأكرت الطافح برائحة الكيروسين والند... وقال:
النهار ده في الموسكي ... هستناك...
باغتتهم صلصلة أجراس بائع اللبن ووجع ولادة بقرة جديد في
حي السيدة فالتصقا بشدة وحين إنزلق صوت أمه من فوق

مستعجلا هرولت إلى الداخل وهى تهتم : طيب .. هاجى
لكنه طلبش بقبضته الصغيرة فوق أصابعه ، أصابعها ، وللحظة
وفى خفية عن أعين المدينة ومئذنة المسجد الكبير تصلبت
عشرة أصابع سمراء صغيرة فوق بعضها كمخلبى قط يهم
بضرب شئ ما ، عدو خفى .

(●) روثمان كينج سايز مكتوبة بالإنجليزية ثم تحتها بالعربية
(أجود ما يمكن شراؤه من تبغ) تتصدر اللافتة الزرقاء
الكبيرة مدخل الشارع من جهة العتبة وتختفى تحتها
عشرات المحلات الصغيرة التى تبيع أجهزة الراديو ... الأدوات
الكهربائية ... أجهزة الترانزستور كشافات الإنارة ... الساعات
اليابانية الفخمة ... وضئيلا مثل كلب أجرب تشمم مسعد
رائحة الكباب المنطلقة من الحاتى ـ تحرث فى أمعائه
التى تفور محدثة فى حلقه غثيان نفس فشعر فى الرغوة
فى القىء . حرك قدميه هروبا من لسعة الأسفلت
سيتناول فطوره مع نرجس ، تفجر وجهها (وسط سواد
الإسفلت وزحمة الخلق وجنون السيارات) كماء الورد ،
غسل حلقه وتمكن من الهتاف على بضاعته ، لماذا
تعطيه وجهها هذه القدرة على الحركة ؟! ، على إختراق
الناس منقبا بعينيه عن زبون ، لماذا يغطى على كل
هذه البضائع المرصوصة ، اللامعة المتحدية وتملأ فراغ
قلبه ، وتبطئ من وخز المسامير فى جنبيه ؟! ، كيف
تسللت هذه البنت إلى شغاف قلبه ، طاردة حجرتها المبللة

وأمه وذكريات سنواته المريرة حيث هاجمه الأولاد في البلد
بلقبه الذي حاول الفرار منه عبثا (إبن عيشه) أباه الغائب ثم
دوخته في الحواري داخل المدينه ..
كانت العربات قد تكدست بشكل يوحي بالموات، للحظة، لكنها
سرعان ما أحدثت ضجيجا رهيبا تلهبها الرغبة في الانفلات من
شارع الجيش الى ميدان العتبه. الاتوبيسات المزدحمة، السيارات
الملاكى المتعددة الجنسيات، العربات النصف نقل والكارو
وعربات اليد والموتوسيكلات المندفعة في جنون،
كل ذلك لم يتمكن من إزاحة نرجس من دماغ الولد، فبضمه
عينيها العسليتين ولحظات شبقه ورائحة جسدها في الفجر
مع صندوق بضاعته فوق صدره، يفكر في تخطية شارع
الجيش متوجها الى الموسكى، سيطعمه أقراص الطعمية
بيديها وسيعطيه إحساسه بقربها توحدا وقوة، سيبنيان
معا حلمهما الخاص ويكرسان وجدهما ضد سواد الأيام المقبلة؛
لمح فراغا ضئيلا بين العربات المندفعه في جنون، تخطى الرصيف
الصغير في قلب الشارع الذى يحدد شريط الترام وكاد يصل
الى الجهة الثانية ولكن شيئا ما حدث.

(بعض المواصفات الخاصة بالسيارة التى
رغبت في تخطي شريط الترام وضبطت جسد سعد).

- سيارة ميكروباس دودج صناعة الولايات المتحده الأمريكية.
- المسافه بين المحورين : ١٢٧ بوصة.
- الطول الكلى للسيارة : ٢٢٠ بوصة.

٥٠

- الموتور بنزين ٦ سلندر يعمل بتبريد المياه قوة ١١٥ حصان ومجهزة للاستعمال بالبنزين المحلى مع استعمال درجات الأوكتين الموجودة في مصر

- الإطارات مقاس ١٥×٧٨٠ - ٤ تيله وعددها ٥ اطارات.

كانت العروس قد ضجت من تكدس الشارع ولسعة الشمس فانحرفت المائة والخمسة عشر حصانا بسلندراتها الستة دفعة واحدة تاركة مكانها متخطية الرصيف الذى يعزل شريط الترام عن الشارع، فلحقت بمسعد، ارتطم الدماغ بالاصطدام الأمامى فتناثرت محتويات الصندوق: الأمشاط والبنس وسور الليل.

وتناثرت محتويات الجسد:

الدم والألم والحلم.

أكتوبر ١٩٧٨

المحتويات